نقض وتقويم

# في الثقافة العربية ... أيضاً !

بقلم محيي الدين اسماعيل

المطلوب من المثقف العربي اليوم ان يتجاوز انسحاقه وهزيمته امام الآخرين . المطلوب منه ان يحس ويستشعر بايجابية وبقوة رصيد الذات . المطلوب منه بكل ايجابية وبكل قوة ان يقدم نفسه ، لا ليمسح عار هزيمة واحدة بل هزائم قرون متطاولة . المطلوب منه ان ينفض عنه جميع أوحال القرون .

ان هناك استحالة مطلقة ، استحالة واقعية وتاريخية ، ان نمسح الهزيمة الجزئية ، وعارها واوحالها ، ان لم نكن قادرين على ان نقف بايجابية وبقوة لنمسح جميع هزائم القرون وعارها واوحالها ، وان نرفض كل غفران لذاتنا ، اي ان نكون قساة كل القسوة على ذاتنا ، غلاظا كل الغلظة على انفسنا .

ان الهزيمة هزيمة واحدة ـ ولن تكون الهزيمة مرة الا اذا تجرعناها ـ كما يقول حكيم قديم ـ .. الهزيمة واحدة ، وان تجزئتها تجزئة لقضيتنا ، تجزئة لتاريخنا وواقعنا وآفاقنا واحلامنا .

علينا ان نتخلص وننقذ انفسنا مرة والى الابد من جميع عقد النقص والانسحاق بعملية روحية اخلاقية حضارية ، تضعنا على مستوى جديد من مستويات الحياة الانسانية . وعلينا قبل ذلك ان نعلم مشقة هذه الطريقة وآلامها ووحشتها وعزلتها اول الامر قبل ان يتم عملية الانقاذ والخلاص .

الهزيمة واحدة لا تتجزأ ، كما النصر واحد لا يتجزأ !

من هنا ، من هذا الاحساس بضرورة الخلاص والانقاذ ورفض الهزيمة الواحدة غير القابلة للتجزئة ، وتحقيق النصر الواحد غير القابل للتجزئة ، ينبغي ان نباشر عملية الحياة الجديدة .. من هذا الاحساس يجب ان تنطلق مباشرتنا لقضايانا الكبرى . وهو ليس محض احساس بضرورة تاريخية وواقعية ، انه احساس اخلاقي روحي مادي تشارك فيه جميع قوى الانسان فينا .

ويومئذ ، يومئذ فقط ، نستطيع ان نتعامل ذلك التعامل الاصيل مع الآخرين دون مساومة ودون هزيمة ودون انسحاق ، وان نحقق عمليات الاخذ والعطاء ، وان نؤكد الممارسة المسؤولة لجميع قضايانا دون احجام عن تبعات وجودنا بمستواه المطلوب .

ان قرون الهزيمة والذل والانسحاق قد ركبت في اعماقنا عقد النقص امام المستويات الجديدة من الحضارة، وافقدتنا الرؤية الصادقة للذات وللتاريخ وللواقع . ان الواحد منا لم يعد قادرا على ان يكون مشاركا في قضايا العالم وهمومه واكداره دون ان يتحدث بمصطلحات الاخرين ، والاخرون هنا هو الغرب الساحق الماحق بحضارته المادية التكنولوجية المتازمة المتشنجة التي فقدت كل قدرة على خلق المناخ الطبيعي للابداع الانساني الحر .

لقد فقدنا امام الآخرين ، وامام الغرب بالذات ، كل قدرة على المغامرة ، وفقدنا صلاتنا بالذات وبالتاريخ وقدرتنا على ان نعلن كلمتنا في معترك قضايا العالم .

اننا تحت وطأة عقد النقص ، لم ندرك بعد ، حقيقة التازم الفاجع والتشنج الاسيف الذي يعيشه الغرب اليوم ، فما زلنا تحت تلك الوطأة الرازحة نتحدث بلغة الغرب عن اخص خصائص الذات ، حتى لم يعد هناك شيء نقوله ونتحدث به ونعلنه للعالم .

انه من العبث ان نمسك بالحضارة الغربية ، فكرا فكرا ، وفكرة فكرة ، لنبحث قيمتها وتقومها بمعايير الانسان ، الانسان المتحفز ، الانسان المتطلع ، الانسان الملتهب شوقا الى الافق ، والانسان الرافض بمسؤولية وايجابية وقوة هذا المناخ القاتل الوبيل الذي اشاعه الغرب والذي لم يعد صالحا ليتنفس فيه الانسان .

ان مناخا ساحقا اشاعه الغرب في هذين القرنين الاخيرين ، وما انقضى من قرننا هذا ، مناخ القلق والتمزق والضياع وانعدام المثل الكبرى .

انه من العبث مرة اخرى ، ان نبحث الفكر الغربي ، فكرا فكرا ، وفكرة فكرة ، ذلك لان القلق والتمزق والضياع والكدر والهموم والتبلد، هي اليوم جوهر مصطلحات الحضارة الغربية الراهنة ولغتها .

ان اجيالا كاملة في الغرب منذ اكثر من قرنين ، ما فتئت تصرخ وتجار باعلى صوتها : ان لم يعد هناك خلق يمكن ان يعاش من اجله . الدمار هو عنوان الحياة الانسانية . الانسان قذيفة غير موجهة تنطلق في العماء . كل شيء قد انحرف . التاريخ بأسره يمثل اكبر انحراف في التاريخ ! ان ظلال الانسان على الارض قد تهشمت وانحلت ثم استحالت الى عتمة مطلقة .

ان الحضارة الغربية قد اخرجت لنفسها وللعالم منذ اكثر من قرنين مواكب لم تنقطع من الفلاسفة والفنانين والمفكرين المزيفين والمسحاء الدجالين والعرافين ، وكلهم بصوت واحد يصرخون ويجارون الى العلاء من هاوية الالم والسقوط .

الصوت الغربي الواحد ، تحول جميعه الى مرثية اليمة واحدة طويلة النفس بلا انقطاع ! مرثية اليمة واحدة تعلن بالف لحن جنائزي سقوط الانسان دون اعتذار أو توبيخ ضمير ، كما تعلن استحالة العالم الى بلقع أجرد عقيم !

اننا بالرغم من ذلك ، ما زلنا نتحدث بلغة الغرب ومصطلحاته التي استحدثها منذ اكثر من قرنين في محاولة مخفقة اسيفة لفهم العالم والحياة والانسان ، وما زلنا نرفض كل مغامرة اصيلة لكي ندخل العالم من جديد .

وان نماذج اسيفة محزنة على استخدام هذه المصطلحات لفهم العالم والحياة ولفهمنا لانفسنا ، ما زالت تستبد بمناخنا الفكري ، لترضي نهم عقد النقص الآكلة في اعماقنا .

ومن هذه النماذج البحث الذي كتبه بسام طيبي عن « الثقافة العربية المعاصرة بين التقدمية والرجعية » ، وهو وامثاله ، هذا البحث وامثاله ، يؤلف بواعث ما نحن بصدد التاكيد عليه من الضياع وخسران الذات والتصرف تحت وطأة عقد النقص .

يستعرض الكاتب « الثقافة » و « المثقف » نظريا وتاريخيا فيرجع الى اصول الكلمة في اللاتينية ثم يستوقفه اللفظ العربي فيقول : ولا ادرى اتيمولوجية كلمة « الثقافة » في العربية !!

ان الكاتب الذي حشد لنا في بحثه هذا جميع عناوين الكتب الالمانية المرصوفة على الرفوف لم يكلف نفسه عناء الرجوع الى اللفظ العربي الذي يعالج بحثه ليعرف على الاقل انها ، وفي ابسط المراجع ، مأخوذة من « ثقّف الرمح أي قومه وسواه » . ثم تحولت اصطلاحا ، الى ان قالت العرب « ثقّف الولد » أي هذبه وعلمه فتهذب وتعلم فهو مثقف وهي مثقفة . ويحاول الكاتب ان يتحدث بالمصطلحات فيؤثر مصطلح « مقولة » اذ يقول : لذلك فان مقولة « الثقافة في جميع اللغات الاوروبية مشتقة من الكلمة اللاتينية ... » وهو يعني « لفظ

الثقافة » وهنا أجدني مضطرا على القول بأن مصطلح « مقولة » تقابل اللفظ الفرنجي Category وليس أي شيء آخر ، فذلك من بديهيات ما تتعين معرفته على كل من يستعرض مثل هذا الثبت المرعب من المراجع في لغة القوم !

ويمضي الكاتب فيستعرض قصة الثقافة تاريخيا فيرى أنها : « في العصور الاقطاعية في أوروبا وبلاد العرب أيضا كانت الثقافة ثقافة القصور ، فكان الاقطاعي ، بكونه أميرا أو ملكا ، هو المشرف على شؤون الثقافة ، وكان العلماء والادباء يعيشون في بلاط الامراء وامثالهم من الاقطاعيين ، ولم يكن من الممكن نشر الادب او العلم خارج نطاق القصور الاقطاعية » .

ان الببغاوية الاسيفة البائسة هي التي تفرض على البعض منا ان يفسر تاريخنا بحسب الصيغ التي استحدثتها بعض الفلسفات الوضعية والمادية في القرن التاسع عشر في أوروبا . والا فاين هو عصر الاقطاع العربي ؟ في أية فترة زمنية بدأ ، ومن أية قوى اجتماعية نشأ ؟

ان النظام الاقطاعي نظام له خصائص معينة نشأ في أوروبا وتحت تاثير عوامل تاريخية تختص بالوضع التاريخي الاوروبي ، بعد تفسخ الامبراطورية الرومانية المقدسة وتقسيمها بين احفاد شارلمان وتحول ممتلكاتها الى اقطاعات كبيرة .

والسؤال المهم هو : هل ، حقا ، أن تلك المراحل التاريخية التي اعتمدتها بعض الفلسفات الاوروبية في القرن التاسع عشر لتفسير تطور المجتمع الاوروبي ، ستظل قانونا فولاذيا لا يمكن ان تدخل عليه الارادة الانسانية أي تحوير أو تبديل ؟ وكيف يمكن أن نفهم التاريخ العربي طبقا لتلك المراحل التاريخية ؟ وما هو العنوان الذي يمكن أن يلصق على مجتمع كالمجتمع العربي الجاهلي ؟ ثم بعد ذلك ما هي طبيعة المجتمع العربي الاسلامي في بدء الدعوة المحمدية ؟ ما هي طبيعته في العصر الاموي والعصر العباسي وفي عصور الانحطاط والحكم المغولي والتتاري والتركي ، وفي ظل الاستعمار الاوروبي الحديث ؟

اني اشك جدا في سلامة تطبيق تلك المراحل التاريخية الاوروبية على المجتمعات العربية ، وان أية محاولة في هذا ، لن تكون سوى محاولة في سبيل لي عنق الزجاجة ، وستظل محاولة زائفة تعتمد المصطلحات المستوردة تحت وطأة الانسحاق الذي نعانيه جميعا امام حضارة الغرب : الغرب الغربي ، والغرب الشرقي ، على السواء !

ان الالتزام الببغاوي بهذه المصطلحات والانبهار بها الى درجة الشلل العقلي والوجداني ، هي سمة من سمات عجزنا وهزيمتنا امام طاغوت المدنية الغربية الحديثة بقرنيها الفائتين ، وما مضى من قرننا العشرين ، على وجه التخصيص .

ان الاقطاع أو النظام الاقطاعي ، بمعناه الذي يتحدث عنه فلاسفة الغرب ومفكروه ، لم يعرف في البلدان العربية طوال تاريخها ، حتى الاحتلال الانكليزي لمصر ، وبعده احتلاله للعراق . عندئذ بدأ الاحتلال الانكليزي يقيم نوعا من النظام الاقطاعي المصطنع الزائف دون أية مقدمات تاريخية واجتماعية ودون أية مؤسسات فكرية تقوم على ذلك الاساس ، من اجل ان يكون قوة من قوى الدعم والاسناد للاحتلال، فاتصل بباشوات مصر وبشيوخ القبائل والعشائر في العراق بعد ذلك ، وقدم لهم الامتيازات ، فاقام من هؤلاء ، هنا وهناك ، فئة اجتماعية دون أية جذور تاريخية ، ودون أية مسوغات للبقاء . وان انهيار هذين النظامين المصطنعين في كل من مصر والعراق بعد ثورتي ٢٣ تموز ١٩٥٢ و ١٤ تموز ١٩٥٨ ذلك الانهيار العاجل دون ان يترك أية آثار في الحياتين المصرية والعراقية ، دليل على عدم جذرية هذا النظام المستورد الزائف الذي اصطنع اصطناعا في هذين البلدين العربيين بقوة أسلحة الاحتلال . وان قوة الاحتلال والقوى المحلية التي عملت على دعمه لم تستطع أن تربط الفلاح بالارض ، كما هو الحال في النظام الاقطاعي الغربي ، بل على العكس من ذلك ، وجدنا ان تدفق الهجرة من الريف الى المدن كان سمة النظام الاقطاعي الزائف في كل من مصر والعراق .

اما البلدان العربية الاخرى ، سواء في المشرق أم في المغرب ، فلم تعرف حتى ولا محاولة واحدة من محاولات اصطناع مثل هذا النظام .

وان قيمة واحدة من القيم أو مفهوما واحدا من المفاهيم أو تقليدا واحدا من التقاليد لم يترك أثره من هذا النظام المنهار سواء في مصر أو في العراق .

اما بالنسبة للغرب ، والغرب الغربي ، بوجه خاص ، فالامر على النقيض من ذلك تماما .

ان تفسخ الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد توزيعها على احفاد شارلمان ، ونشوء المدن والاسواق المحلية في مدن غربي أوروبا ، لتكون مراكز القوة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وعواصم الاسافقة التي تشتمل على الاديرة الكبرى ، مع ما يتبعها من الاقطاعات الزراعية الشاسعة ، ونمو التقاليد والاعراف الخاصة طبقا لذلك ، قد خلق نمطا من الحياة ، اصبح فيها السيد الاقطاعي المرتبط بالمؤسسات الكهنوتية يمثل قوة اجتماعية لها خصائصها ومقوماتها ، يرتكز على قوة الفلاحين الذين هم جنود السيد الاقطاعي الذي يمثل مركز القوة لسلطة الكنيسة . والاديرة هي ذاتها ، بعد فترة من الزمن ، جامعات الغرب في باريس واكسفورد وايطاليا . ومن هنا نجد ان التعليم في هذه الجامعات قد احتفظ بشكله التقليدي الذي ورثه عن الاديرة ، ونعني به شكل « الموعظة الحسنة » ، ذلك ان الاكليروس هي الفئة الاجتماعية التي تحملت مسؤوليات نشر التعليم ، كما تحملت ايضا مسؤولية ادارة الاقطاعية وصلات الفلاحين أو الجنود بالسيد الاقطاعي من جهة وبالكنيسة الكاثوليكية الرومانية من جهة أخرى .

اما ثقافة هذا العصر الاقطاعي ، في الغرب الغربي ، فلا يمكن استخلاصها من محض الصلات والعلاقات الاقتصادية وطبيعة أدوات الانتاج الزراعي ، بل يجب متابعة قصة هذا العصر الى الجذور . وان اية محاولة لفهم عقلية ووجدانية هذا العصر وتقاليده واعرافه في حدود تلك الصلات والعلاقات وطبيعة أدوات انتاجه انما هي محاولة قاصرة عقيمة مردها الى تلك الذهنية الببغاوية التي تفسر الامور على غير طبائعها .

ان ثقافة هذا العصر وتقاليده ووجدانيته واعرافه وتكونه الذهني والنفسي يجب ان يرجع بها ، الى جميع تلك العوامل ، الى طبيعة عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية القائمة على تلقائية الايمان بما في التثليث وفي مبدأ تحول الخبز والنبيذ الى جسد السيد المسيح والى الرموز العديدة التي أكدتها المجامع الكنسية واقرتها كمبادىء تقوم على أساسها العقيدة المسيحية ، والتي كانت ، بطبيعتها لا تثق وثوقا كاملا بالعقل . ومن هنا نجد أن هذا العصر قد شهد عددا من أكبر القديسين في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، من أمثال سان برنار والقديس فرانسيس الاسيسي والقديس آلسنت وتوماس أكمبس صاحب الطرفة الصوفية المسيحية المعروفة « الاقتداء بالمسيح » ، ممن ثاروا على سلطان العقل ، وعارضوا كل قضية تصدر عن العقل في مملكة الايمان .

ان الذهنية التي رفضت سلطان العقل النهائي في هذا العصر ، لم تكن ثمرة النظام الاقطاعي بعلاقاته الاقتصادية وطبيعة ادوات انتاجه الزراعية فحسب بل كانت ثمرة هذه وذاك من مبادىء العقيدة الايمانية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

ان النظام الاقطاعي الغربي كان ، في حقيقة الامر، قائما على العادة: عادة الصلة بين السيد الاقطاعي وفلاحيه وجنوده ، وعادة صلة السيد الاقطاعي بالكنيسة ، وعادة الصلات بين السادة الاقطاعيين ، وعادة ممارسة السلطة للسيد الاقطاعي في جميع المجالات .. العادة هي الحق . لم يكن هناك حق من حيث هو حق ، وانما الحق هو الذي تقره العادات والاعراف والتقاليد . وفي هذا اوضح تعبير عن الغاء قوة العقل وقوة الوجدان الانسانيين .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نجد أن عصور الاقطاع في الغرب الغربي لم تميز بين ما هو روحاني وبين ما هو دنيوي في حياة الانسان ، فالسيد الاقطاعي ليس مجرد سيد دنيوي ، بل هو رمز كنيسي ايضا .

ومن هنا ، عندما بدأت طلائع الفكر المتحرر تناقش قضايا العقيدة وقضايا الانسان ، كانت تلك المناقشة تستهدف مناقشة الحق باعتباره عادة من العادات ، وتحاول أن تفصل بين ذلك الخلط التقليدي بينه ، أي بين الحق والعادة . وتلك قضية هامة ينبغي أن ينتبه لها المرء عند دراسة تلك العصور .

أما المجتمع العربي ، فلم يشهد مثل هذا النظام الاقطاعي المعروف في الغرب الغربي ، بقيمه وتقاليده وأعرافه وذهنيته وصلاته الاجتماعية والاقتصادية .

ان التاريخ العربي بأسره لم يشهد نظاما اقطاعيا الا في أواخر القرن التاسع عشر في مصر وفي أوائل القرن العشرين في العراق ، وكان النظامان اللذان أقيما هنا وهناك نظامين مصطنعين ليست لهما أية جذور تاريخية او حتى اجتماعية أو اقتصادية ـ كما سلف القول ـ.

اني هنا ، لست مهيئا لوضع بحث عن طبيعة المجتمع العربي منذ عصره الجاهلي ، ولكن الذي ينبغي ان نقرره هنا ، هو ان ذلك النظام الاقطاعي الذي عرفه التاريخ الغربي بتقاليده واعرافه وحقه التقليدي وذهنيته لم يشهده المجتمع العربي على مدى تاريخه ، ولم يكن ذلك شذوذا او انحطاطا شاذا في التاريخ ، بل كان أمرا طبيعيا ، فالمجتمع العربي لم يشهد علاقات كالعلاقات الغربية بين مؤسسة كمؤسسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والسادة الاقطاعيين وادواتهم اقاليم الغرب كاقليم الفلاندر وأدواته ـ مثلا ـ ولم يعرف المجتمع العربي حياة كالحياة الديرية وما عرفته الاديرة من حياة ثقافية نشأت عنها جامعة باريس وجامعة أكسفورد ثم بعدهما جامعات أوروبا الاخرى . ولم يعرف المجتمع العربي انفصاما تقليديا في الحياة الثقافية ، بين السيد والفلاحين والجنود من جهة ، وبين البيئات المستنيرة من جهة أخرى . ان السيد الاقطاعي في الغرب لم يكن معنيا بأي شأن من الشؤون الفكرية والثقافية في عصره وكذلك كان فلاحوه وجنوده ، بينما كانت الاديرة في عصور طويلة تحتدم بالجدال العنيف بين ( الواقعي ) و ( الاسمي ) في الوجود والكون ، وبين ( العام ) و ( الخاص ) في الحياة اليومية العادية . ان السيد الاقطاعي في الغرب الغربي لم يكن يعرف شيئا عن الحياة الثقافية في كنيسة القديس يوليان الفقير أو الكليات الديرية التي بناها روبرت دي سوربون ( السوربون ) مثلا والتي كانت موئل الكهنة والرهبان والمثقفين في تلك العصور . ان السيد الاقطاعي الغربي كان مشغولا بمطارداته وبطولاته العادية ، ولم يكن سوى رمز للصلة الروحية مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ... لا شيء سوى الرمز .

ان المجتمع العربي لم يعرف في تاريخه نمو المدن على طريقة التجمع الحرفي والمهني الذي شهده الغرب وتأليف النقابات الحرفية Guilds وفرضها شروط التضمين والتأمين وتوظيف الاموال في الحرف والمهن المختلفة وتنظيم ضرائب المدينة المعروفة في اوروبا في العصر باسم Firma Burgi ثم البراءات المعروفة باسم Charters في القرن الثاني عشر . ولم يعرف المجتمع العربي طوال تاريخه نظام القلعة المرتبطة بحياة النظام الاقطاعي في الغرب ، ذلك انه منذ انهيار الامبراطورية الرومانية المقدسة كان على المدينة الاقطاعية أن تقدم للسيد الاقطاعي مبالغ معينة من المال لاقامة القلعة والاسوار وحمايتها من المعتدين والمغيرين ومن هجمات المتبربرين . ان المجتمع العربي لم يعرف مثل هذه العلاقات والصلات على الاطلاق باستثناء أوجه شبه عرضية بين حياة القلاع الاقطاعية هذه وحياة الثغور المعروفة في التاريخ العربي ، أي تخوم البلدان العربية المصاقبة للروم بوجه خاص ، وبصفة أخص ثغر حلب وبقلعته المعروفة أيام الحمدانيين .

ان المجتمع العربي لم يشهد في كل تاريخه صراعا بين المدن والقلاع على الاراضي الزراعية ، أو صراعا بين الامبراطوريين وأعداء الامبراطورية أي البابويين . ان الصراع بين الامبراطورية والبابوية في ايطاليا وفي أقسام كبيرة من الغرب الغربي كان عاملا من عوامل ترسيخ حياة القلاع الاقطاعية .

ذلك كله لم يعرفه المجتمع العربي في جميع عصوره . وان اية دراسة تقوم على أساس من تطبيقات النظريات المستمدة من التاريخ لا بد أن تكون دراسة فاشلة تخضع لسحر المصطلحات ، ولا صلة لها لا بالواقع العربي ولا تاريخه .

ومن المؤسف أن معظم الكتاب الذين يعرضون لدراسة واقعنا وتاريخنا قد خضعوا بوعي او بغير وعي لسحر تلك النظريات ومصطلحاتها ، فلم نقرأ أية محاولة لدراسة تاريخنا وواقعنا استنبطت من العكوف على هذا الواقع وهذا التاريخ وانعام النظر فيهما بمعزل عن التأثيرات المستوردة التي تؤكد ما نقوله عن انسحاقنا وتوالي هزائمنا أمام الفكر الغربي .

ان الكاتب هنا ـ بحسب ما يبدو لي ـ قد يسربله الخجل اذا لم ينتم الى مدرسة من مدارس التفسير التاريخي في الغرب : الغرب الغربي أو الغرب الشرقي . وذلك أبلغ الادلة ، في نظرنا ، على ما نؤكد عليه من رزوحنا تحت أعباء عقد النقص الآكلة النهمة التي لوثت كثيرا من مسالكنا الفكرية ، وأبعدتنا عن واقعية الاختبار الذاتي ، ثم جعلتنا ننساق مع هاتيك المدارس لنخضع الانسان بكل طاقاته والحياة بكل غاياتها الكبرى للمقتضيات العابرة التي تحددها تلك المدارس في ضوء تجاربها الخاصة ، فتحول الانسان وتحولت الحياة الى محض كتل موات تخضع خضوعا لاعاصم منه للحتمية الفولاذية ، باسم النظرة العلمية !

تلك هي اللوحة العامة ، بخطوطها العريضة ، للنظام الاقطاعي الذي شهده الغرب في بعض عصوره والذي بنيت على أساسه نظرية المراحل التاريخية في الفلسفات المادية في القرن التاسع عشر ، والذي نجم عن موروث الرق الروماني ، أو بتعبير أدق رقيق الارض Serfdom

## الى السادة الادباء

لا يزال بعض الادباء الكرام الذين يتعاونون مع « الآداب » يرسلون المادة النشرية نفسها التي يوافون بها المجلة الى مجلات اخرى في وقت واحد ، او بعد مضي زمن قليل ، فيحدث ان تنشر هذه المادة في « الآداب » وفي مجلة اخرى في الشهر نفسه او في شهرين متتابعين .

وتجد رئاسة تحرير المجلة نفسها مضطرة الى تجديد التنبيه الى ان المجلة ستمتنع بعد الآن عن نشر اي مقال او قصة او قصيدة يتبين ان صاحبها يلجأ الى هذا الاسلوب .

الروماني ، ذلك النظام الذي عرفته الامبراطورية الرومانية ، فرقيق الارض هم غير السبايا والاسرى والعبيد .

ان الغرور الغربي ، لا سيما في ظل مدنيته التكنولوجية الحديثة التي تمت بانقلاب هائل مريع على جميع الانسانيات وقيمها ، قد أقام نوعا من المنطق والفهم والمقاييس جعل هذا الفرد الغربي يستخلص النظريات من دراسته للتاريخ الاوروبي ليطبقها عسفا وقسرا على تاريخ العالم بأسره . فالفرد الغربي يدرس اليوم تاريخ أوروبا ، او تاريخ الغرب ، وهو يحسبه يدرس تاريخ العالم .

وانه لمن المحزن الممض حقا ، ان ثقافتنا العربية المعاصرة لم تتعامل مع كبرى الحضارات تعاملا أصيلا بل وقفت موقف المنسحق اللاهث يفتح فمه عجبا ودهشا أمام سحر المدنية التكنولوجية الساحقة ، دون أن يضعها في مكانها الطبيعي ، ويقدرها حق قدرها من غير اسراف او مغالاة ، وبالتالي استعار جميع مصطلحاتها ومفاهيمها ومعاييرها وقيمها، بكل ما فيها من جور على الانسان وعجز عن حل مشكلاته حلا ايجابيا ، بالرغم من كل سحرها ، وبالرغم من كل ما تنطوي عليه من مدلولات قدرة الانسان على الكشف عن كنوز الطبيعة والنفاذ الى اعماقها وتذليلها لارادته ومشيئته ، قد حققت ذلك على حساب الجوهر الانساني الحق الذي أهمل ، بل ارتكبت ضده جرائر وحشية لا يمكن ان تغتفر .

ان هذه المدنية تعلن لنا ، بكل تأكيد صارخ بليغ ، أنها ، وخلال جيلنا هذا الذي نحياه ونعاني تجربته المبيرة ، قد فارقت الى الابد قدرتها على بلوغ الحلول الايجابية للانسان ... انها هي التي تعلن ذلك ، وتؤكده بكل ألحان الموت والعطب والخراب .

ولن تستطيع ثقافتنا العربية المعاصرة ان تتعامل مع كبرى الحضارات ومع ذاتها ذلك التعامل الاصيل المخصب ، ما لم تتمرد ـ اولا وقبل أي اقتحام ـ على الاستسلام لعقد النقص ازاء هذه المدنية التي تتأرجح وتترنح لاهثة مقهورة .

ان المسالك والتصرفات الناجمة عن عقد النقص هذه هي التي أملت على كاتب مثل بسام طيبي أن يكتب في الثقافة العربية المعاصرة فيتهمني بأن مفهومي للفكر مفهوم ميتافيزيقي واني امثل قفزةالى الوراء .. الى المثالية الهيغلية ، وان مثاليتي ، بعد ذلك ، اكثر انخفاضا من مثالية هيغل ، واني عجزت عن أن أقدم تفسيرا لانفصال الفلسفة عن الادب في الفكر العربي المعاصر .

ان هذه النعوت ومثيلاتها ، مع اعتذاري للنفس ، قبل اعتذاري للآخرين، ارى انها لم تعد شيئا ذا بال لدي ، فانه لم يعد مما يشرفني أن أكون هيغليا أ و غير هيغلي أو أن أكون من عبيد هذا الثبت من المصطلحات أو ذاك . أقول ذلك بعد ان سلخت من العمر زهاء ربع قرن قضيته في العكوف على دراسة آثار الغرب وفكر الغرب بشتى مدارسه الادبية ، والفلسفية العظمى ، وما زلت أحاول بكل جهد ان استقبل كل ما هو انساني في هذا الفكر أو غيره ، مع جهد جهيد في ان لا أكون من هذا العلق المصاص ، المتصاغر ، المتصاغر جدا الى حد العمى عن رؤية الذات ، ثم العمى عن رؤية الآخرين ، على غير حقيقتهم وبغير قاماتهم الحقيقية .

فهل أوشكنا أن نستشرف مرتجيات عهد جديد ؟

**محيي الدين اسماعيل**


**دار الآداب تقدم**

في الموسم الجديد القادم

**مجموعة هامة من الكتب الجديدة**

**بين آدم وحواء**

للمرحوم الدكتور زكي مبارك

●

**الشعر الجديد ... لماذا ؟**

تأليف صلاح عبد الصبور

●

**مختارات من شعر علي محمود طه**

تقديم صلاح عبد الصبور

●

**عن الرجال والبنادق**

بقلم غسان كنفاني

●

**اصول الفكر الماركسي**

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

●

**صورة الفنان في شبابه**

رواية تأليف جيمس جويس

ترجمة ماهر البطوطي

●

**الشوارع العارية**

رواية تأليف فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

●

**صحراء التتر**

رواية تأليف دينو بوزاتي

ترجمة خليل الهنداوي وابراهيم المرجاني